الإهلاك والإنذار

بالغرق والطوفان آية من آيات الله

تقديم

د.محمد بن عبدالعزيز العواجي

الأستاذ المساعد بقسم التفسير كلية القرآن الكريم

الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

١٤٢٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــــــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، أمر خير خلقه بالنظر والاعتبار في قصص السابقين ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [سورة يوسف١١١]

والحمد لله ولي الصالحين ، وقاصم الجبابرة والظالمين، وناصر المؤمنين والمستضعفين ، الحمد لله حمداً يليق بجلاله ذو القوة المتين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وإمام العلماء وقدوة الدعاة والمجاهدين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأطهار الأبرار حماة الدين وحملة رسالة رب العالمين إلى الناس أجمعين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد :

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠] وقال عز من قائل: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤] . وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم : (وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)[1]. قال النووي: فمعناه ظاهر، أي: تنتفع به إن تلوته وعملت به، وإلا فهو حجة عليك [2]. وقال السندي: (أو عليك): إن قرأته بلا عمل به[3].

لقد أنزل الله القرآن ليكون كتابا لتغيير النفوس بما يؤدي لتغيير الواقع. فما الذي حدث؟ لماذا أصبح القرآن بلا تأثير في حياتنا؟ إن الأسباب التي تقف وراء ذلك كثيرة ومتعددة. لعل من أهمها: عدم التدبر وفهم معانيه. ومن أسباب ذلك عدم الالتزام بتنفيذ أوامره ونواهيه.

سبب اختيار الموضوع :

وإن من جوانب تدبر القرآن الكريم : تتبع السنن التي وقعت على الأمم السابقة ، والتي حلت عليها بسبب انحرافها عن الصراط المستقيم والمنهج القويم ، وتكمن الفائدة وتحصل العبرة

---

(١)صحيح مسلم كتاب الطهارة باب الضوء (٢٢٣)، والترمذي كتاب الدعوات باب(٨٦) (٣٥١٧)، وابن ماجة كتاب الطهارة وسننها باب ثواب الطهور (٢٨١).

(٢)صحيح مسلم بشرح النووي (١٠٣/٢) .

(٣) حاشية السندي على سنن النسائي(١٠/٥) .

والعظة في البحث والتدبر والتفكر في أسباب هذه العقوبات ، والتفكر فيما ذكره الله في كتابه في أسباب دفع هذه العقوبات وعوامل النجاة من غضب رب الأرض والسموات .

إن هذه العقوبات كثيرة متنوعة قص الله بعضها في كتابه مجملة ومفصلة ، وأمرنا بتدبرها وأخذ العبرة والعظة حتى لا نقع فيما وقعوا فيه فيحل علينا ما حل بهم ، وذكر سبحانه رحمةً بنا وفضلاً منه على عباده بعض العوامل التي إذا أخذ بها الأفراد والمجتمعات والأمم رفعت عنهم العقوبات ودفعت.

قال سبحانه : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران ١٣٧]، وقال سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة يونس ٣٩].

والله سبحانه لما قص لنا حال الأمم الماضية أمرنا بأخذ العبرة والعظة وعدم السير على طريقهم ومنهجهم فقال سبحانه : ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [سورة التوبة ٦٩-٧٠].

إن الناس في الأزمنة المتأخرة تعرضوا لعقوبات وآيات كونية ربانية -وهي في ازدياد- ونحن نعيش مرحلة صعبة ، لكثرة ما نسمع ونرى من تتابع الآيات والنذر .

ومن تدبر حال الأمة مع هذه الآيات يأخذه الخوف والعجب من صنعها ومواقفها ، وإن المخرج من هذه الفتن والمحن بسلام وأمان لن يكون إلا بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ففيهما النور والهدى ، ومن خلال تدبر كتاب الله في معرفة الأسباب الجالبة ، والعوامل الدافعة للعقوبات عن الأمم .

ولأن الطوفان والغرق من العقوبات التي تكرر ورودها في القرآن الكريم ، أحببت أن أبسط شيئاً من الدراسة على ذلك النوع من العقوبات ، وتلك الآية التي يخوف الله بها عباده ، محاولاً استعراض أنواعها ، وصورها وأسبابها الشرعية ،وذلك وفق منهجية موضوعية مختصرة .

منهجية البحث :

لقد سلكت في تسطير وصياغة هذه الورقات المنهج العلمي التالي :

- سلكت أسلوب المقالة في صياغة البحث "لأنه ذا طابع وعظي تذكيري ".
- التزمت ما ذكره العلماء المشتهرون في الفن في معنى الآيات الإجمالي على الوجه الأرجح ، معرضاً عن ذكر الخلاف في ذلك بناء على منهجية هذا النوع من التفسير .
- ما صغته في معاني الآيات والاستشهاد بها فهو ممّا فهمته من جرد كتب التفسير عامّة .
- حاولت أن تكون خطوات وخطة البحث موافقة لما اتفق عليه أهل فن "التفسير الموضوعي للقرآن الكريم" ، وفقاً لما قيده د.زاهر عواض الألمعي في (دراسات في التفسير الموضوعي) ود.مصطفى مسلم في (مباحث في التفسير الموضوعي) ، واستلهاماً ممّا سلكه الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي في كتابيه (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن) و (فتح الرحيم الملك العلام). وإني لأرجو أن أكون وفقت لذلك .
- تخريج الأحاديث والروايات ، والحكم عليها من حيث الصحة والضعف نقلاً عن العلماء في ذلك الفن .

خطة البحث :

وقد اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة :

المقدمة : وتضمنت سبب اختيار الموضوع ومنهجية البحث ، وخطة البحث .

وتمهيد : تضمن معاني الطوفان اللغوية الإصطلاحية ، ومعانيه في القرآن الكريم .

الفصل الأول : صور الإهلاك بالطوفان في القرآن الكريم : وفيه خمسة مباحث.

المبحث الأول : الإهلاك بطوفان الماء (طوفان قوم نوح).

المبحث الثاني : الإهلاك بطوفان النار (طوفان أصحاب الجنة).

المبحث الثالث : الإهلاك بطوفان الغرق (غرق قوم فرعون).

المبحث الرابع : الإهلاك بطوفان السيل (سيل قوم سبأ).

المبحث الخامس : الإنذار بالطوفان (طوفان قوم فرعون) .

الفصل الثاني : التهديد بالإغراق : وفيه ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : صور التهديد بالإغراق عامة .

المبحث الثاني : وصف حال الناس في موج البحر .

المبحث الثالث : وصف موج البحر وظلمته وضربه مثلاً .

الفصل الثالث : أسباب الطوفان الشرعية .

الخاتمة : وفيها أهم النتائج والتوصيات في البحث .

ثم فهرس المراجع والمصادر .

والله أسأل الإعانة والتوفيق والسداد فلا حول ولا قوة إلاّ به وهو حسبي ونعم الوكيل.

الباحث/د.محمد بن عبدالعزيز العواجي

تم تبييضه في ١٤٢٧/٧/١٧هـ

طيبة الطيبة

تمهيد

ذكر معاني الطوفان في القرآن

الطوفان لغة: يقال: **طاف** حوله ، وبه ، وعليه ، وفيه ، **طَوْفاً وطَوَافاً** ، أي : دار وحام.

ويقال : **أطاف** بالشيء ، أو عليه ، أي : ألمّ به وقاربه وأحاط به. ويقال : الناس والجراد أو غيرهما ملؤوا الأرض **كالطوفان.**

قال عطاء : **الطوفان** الموت . وقال مجاهد : **الطوفان** الموت على كل حال [١].

وقيل **الطُّوفان** : هو المطر الغالب الذي يغرق من كثرته[٢]، والماء الغالب ليغشى كل شيء ، والموت الذريع الجارف ، والقتل الذريع[٣]، والسيل المغرق ،وكثرة المطر والريح[٤].

والطوفان من كل شيء : ما كان كثيراً أو عظيماً من الأشياء أو الحوادث بحيث يطغى على غيره ، والفيضان العظيم كالذي أهلك قوم نوح[٥].

والطائف لا يكون إلا ليلاً ، ولا يكون نهاراً[٦]،

والطائف : هي بلاد ثقيف في وادٍ ، **والطوّاف** : هو الخادم يخدمك برفق وعناية.[٧]

الطوفان اصطلاحاً:

ومن المعاني اللغوية السابق يمكن أن نقول أن الطوفان في الاصطلاح هو كما قال الإمام الألوسي : " ما طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل" [٨] ، وهو أيضا "اسم لكل شيء حادث يحيط بالجهات ويعم كالماء الكثير والقتل الذريع والموت الجارف وقد اشتهر في طوفان الماء "[٩].

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٠/٣٧٩-٣٨٠). تفسير غريب القرآن (١٧١).

(٢) معاني القرآن للزجاج (٢/٣٧١)

(٣) تفسير غريب القرآن العظيم للرازي (٣٣٧).

(٤) النكت والعيون في تفسير الماوردي (٢/٢٥٢).

(٥) المعجم الوسيط ، د/ إبراهيم أنيس ورفاقه (٥٧١). الطبعة الثانية.

(٦) معاني القرآن للفراء (٣/١٧٥).

(٧) القاموس المحيط ، الفيروزآبادي – ط٢- مؤسسة الرسالة – ص(١٠٧٦).

(٨) روح المعاني (٩/ ٣٣).

(٩) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني (٣٢٠).

معاني الطوفان في القرآن :

يقول الإمام ابن الجوزي : "ذكر بعض المفسرين أن الطواف في القران على ستة أوجه :

١ الطواف بالبيت : ومنه قوله تعالى :﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ [سورة البقرة ١٢٥]

٢ السعي بين الصفا والمروة : ومنه قوله تعالى :﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [سورة البقرة ١٥٨].

٣ الجولان : ومنه قوله تعالى :﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الرحمن٤٤].

٤ الخدمة : ومنه قوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الطور ٢٤]..

٥ نار محرقة : ومنه قوله تعالى :﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة القلم ١٩].

٦ الوسوسة : ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [سورة الأعراف ٢٠١]"[(١)].

ويمكننا أن نزيد معنى سابعاً وهو:

٧ الإهلاك بالماء: ومنه قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة العنكبوت ١٤] . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [سورة الأعراف ١٣٣].

فأخبرنا الله في القرآن الكريم عن الإهلاك بالطوفان عن طريق قصص الذين أهلكهم الله تعالى بالماء ، وأخبرنا بالإهلاك به ، وَوَصف البحر والموج ، وعرض لبعض الصور في القرآن التي تعرض هلاك أقوام بالطوفان .

---

(١) نزهة الأعين والنواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي (٤١٥).

الفصل الأول

صور الإهلاك والإنذار بالطوفان في القرآن الكريم

المبحث الأول

الإهلاك بطوفان الماء (طوفان قوم نوح)

قد وصف الله تعالى ما حصل لقوم نوح بأنه طوفان فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [سورة العنكبوت ١٤]. قال قتادة : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ ﴾أي : الماء الذي أرسل عليهم ، وعن الضحاك قال : الطوفان الغرق[1].

فقد اختار الله نوحاً عليه الصلاة والسلام لحمل الرسالة ، فخرج نوح إلى قومه وبدأ دعوته ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ ﴾ [سورة الأعراف ٥٩]، ولكنهم كذبوه ورفضوا دعوة الله بعد أن مكث فيهم نوح عليه السلام يدعوهم بكل الوسائل تسعمائ ة وخمسين سنة ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ ﴾ . [سورة نوح ٥-٩].

فأصدر الله تعالى حكمه على الكافرين بالإهلاك بالطوفان، وأمر عبده نوحاً عليه الصلاة والسلام أن يصنع السفينة ، وقال له : ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي

(١) تفسير الطبري (١٨/٣٧١).

ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة هود ٣٧]. فإن الله تعالى يغرق الذين ظلموا مهما كانت أهميتهم أو قرابتهم للنبي عليه السلام وينهى الله نبيه أن يخاطبه أو يراجعه أو يشفع فيهم .

فبدأ نوح عليه الصلاة والسلام يبني السفينة، ويمر عليه الكفار فيرونه منهمكا في صنع السفينة، والجفاف سائد، وليست هناك أنهار قريبة أو بحار. كيف ستجري هذه السفينة إذن يا نوح؟ هل ستجري على الأرض؟ أين الماء الذي يمكن أن تسبح فيه سفينتك ؟ وترتفع ضحكات الكافرين وتزداد سخريتهم من نوح عليه السلام، قال تعالى :﴿ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة هود ٣٨] .

إن قمة الصراع في قصة نوح تتجلى في أن الباطل يسخر من الحق ، يضحك عليه طويلا، متصورا ومغتراً أن الدنيا ملكه، وأن الأمن نصيبه،وأن العذاب غير واقع ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) قال ثم قرأ قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة هود ١٠٢][1] .

انتهى صنع السفينة، وجلس نوح عليه الصلاة والسلام ، ينتظر أمر الله،أوحى الله إلى نوح أنه إذا فار التنور هذا علامة على بدء الطوفان ،قيل في تفسير التنور أنه بركان في المنطقة وقيل أنه الفرن الكائن في بيت نوح، إذا خرج منه الماء وفار كان هذا أمرا لنوح بالحركة .

وجاء اليوم الرهيب، وفار التنور، وأسرع نوح يفتح سفينته ويدعو المؤمنين به ليركبوا معه ، وحمل نوح إلى السفينة من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين كما أمره الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة هود ٤٠].

ارتفعت المياه من عيون الأرض. وانهمرت من السماء أمطار غزيرة بكميات لم تر مثلها الأرض ، فالتقت أمطار السماء بمياه الأرض، وصارت ترتفع ساعة بعد ساعة، فقدت البحار

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قول الله تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٤٦٨٦). صحيح مسلم كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم (٢٥٨٣).

هدوئها، وانفجرت أمواجها تجور على اليابسة، وتكتسح الأرض ، وارتفعت المياه أعلى من الناس ، ثم تجاوزت رؤوس الأشجار، وقمم الجبال، وغطت سطح الأرض كله.

وفي بداية الطوفان نادى نوح ابنه. وكان ابنه يقف بمعزل منه ، ويحكي لنا المولى عز وجل الحوار القصير الذي دار بين نوح عليه السلام وابنه قبل أن يحول بينهما الموج فجأة .

نادى نوح ابنه قائلا : ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة هود ٤٢-٤٣].

انظر إلى دلالة لفظ القرآن الكريم أنهى الموج حوارهما فجأة، نظر نوح فلم يجد ابنه، لم يجد غير جبال الموج التي ترتفع وترفع معها السفينة، وتفقدها رؤية كل شيء غير المياه. وشاء الله أن يغرق الابن بعيدا عن عين الأب، رحمة منه تعالى بالأب.

واستمر الطوفان ، واستمر يحمل سفينة نوح ، وبعد ساعات من بدايته، كانت كل نفس مشركة على الأرض قد هلكت غرقا. لم يعد باقيا من الحياة والأحياء غير هذا الجزء الخشبي من سفينة نوح، وهو ينطوي على الخلاصة المؤمنة من أهل الأرض. وأنواع الحيوانات والطيور التي اختيرت بأمر الله وعنايته.

واستمر طوفان نوح زمنا لا نعرف مقداره ، ثم صدر الأمر الإلهي إلى السماء أن تكف عن الإمطار، وإلى الأرض أن تستقر وتبتلع الماء، وإلى أخشاب السفينة أن ترسو على الجودي، وهو اسم مكان قديم يقال أنه جبل في العراق – وطهر الطوفان الأرض وغسلها. قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[(١)][سورة هود ٤٤]

وقد وصف الله هذا الذي حصل لقوم نوح بالغرق قال تعالى : ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الفرقان ٣٧]. وقال تعالى لنبيه نوح عليه السلام : ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا

(١) انظر أحداث قصة نوح عليه السلام في كتب التفسير على وجه العموم ، وتفسير الطبري على وجه الخصوص ، والبداية والنهاية (٩٣/١).

تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة هود ٣٧].وقال تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة نوح ٢٥].

فالغرق أثر من آثار الطوفان الذي أصابهم .

وقد لا يلزم من الطوفان الغرق كما في طوفان آل فرعون — الذي سيأتي الحديث عنه – أما قوم نوح فقد جمع الله لهم العقوبتين الطوفان والغرق .

وقد يكون الغرق أثراً لطوفان غير الطوفان الأول بل طوفان إطباق البحر عليهم ، كما في غرق فرعون وقومه كما سيأتي .

المبحث الثاني

الاهلاك بطوفان النار (طوفان أصحاب الجنة)

قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[سورة القلم ١٧-٣٣].

" هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ﴾ أي : اختبرناهم. ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه .

فقد أقسم أصحاب تلك الجنة فيما بينهم ليحصدنّ ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ، ولا يتصدقون بشيء ، – **أي أرادوا منع الزكاة** – فكانت النتيجة : ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ أصابتهم آفة سماوية كالليل الأسود وهم نائمون ،قال الزجاج : أرسل الله عليهم عذاباً من السماء فاحترقت كلها" [1]. " فلما استيقظوا نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الحصاد ، فذهبوا وهم يتناجون فيما بينهم ألا يعطوا منها مسكيناً بحيث لا يسمع أحد

(١) معاني القرآن وإعرابه (٥/٢٠٨).

كلامهم ، ولكن الهآ تعالى كان يسمع كلامهم ونجواهم. فلما وصلوا إليها وهي على الحالة التي وصف الله عز وجل ، حيث استحالت تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة ،لا ينتفع بشيء منها ، ومن شدة الصدمة وعدم تصديق أعينهم اعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ، ولكنهم تيقنوا أنها هي ولكن لا حظ لهم فيها ولا نصيب . فقال أحدهم هلا تسبحون الله على ما أعطاكم وأنعم عليكم ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ فأتوا بالطاعة وندموا واعترفوا لكن بعد وقوع العذاب ، وأقبلوا يلوم بعضهم بعضاً على ما أصروا عليه من منع الفقراء والمساكين.

ثم عقب الله تعالى على هذه القصة بقوله : ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ ،أي هذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم عليه ، ومنع حق المساكين والفقراء ، وذوي الحاجات وبدل نعمة الله كفراً ، ولن يقف العذاب عند عذاب الدنيا فقط بل هناك عذاب في الآخرة أشد وأشق "[1].

وهذه القصة مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يونس ٢٤]

(١) انظر تفسير ابن كثير (٨/١٩٥-١٩٧) مختصراً .

المبحث الثالث

الإهلاك بطوفان الغرق (غرق قوم فرعون)

وهذا الغرق يختلف عن الطوفان الذي جاءهم من قبل ، فإن الطوفان جاء بعده أنواع أخرى من العذاب ، فكانت بمثابة نذر وآيات تذكير ، أما الغرق فقد كان بمثابة نهاية فرعون وقومه .

فلقد تمادي أهل مصر في كفرهم وعتوهم ومتابعتهم لملكهم وزعيمهم فرعون ومخالفتهم لنبي الله موسى عليه السلام ، بعد أن أقام عليهم الحجج والبراهين العظيمة. قال تعالى ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة يونس ٨٣].

عند ذلك دعا عليهم نبي الله موسى بقوله : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلاً فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة يونس ٨٨]

فأمر الله نبيه موسى أن يخرج من مصر هو وبنوا إسرائيل ، فعندما علم فرعون بذلك الخروج جهز جيشاً كبيراً وأراد اللحاق بهم ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء ٥٢- ٦٨]

فالله سبحانه وتعالى شق البحر لنبيه موسى عليه السلام هو وقومه الذين آمنوا معه ، أما الذين كفروا بالله وتجبروا وآذوا الذين آمنوا فلم يكن لهم إلا الغرق والإهلاك والمحو من الوجود ، ولكن الله أبقى لنا جسد فرعون ليكون لنا عبرة وعظة ، وليكون عبرة وعظة لكل من يتجبر ويتكبر ويكفر بالله عز وجل ويكذب رسله عليهم الصلاة والسلام .

قال تعالى :﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ ﴾ [سورة يونس ٩٢].

فأهلكه الله ومن طغى معه من قومه بما كان يفتخر به ويعتز به على موسى ويدلس به على قومه : ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ ﴾ [سورة الزخرف ٥١]. فأجرى الله سبحانه وتعالى الماء من فوقه ومن تحته ومن أمامه ومن خلفه ليعلم من هو إله موسى الذي يكذب به ويجحده ، نسأل الله العفو والعافية ، وأن يرزقنا لذة العبادة والطاعة والعبودية له سبحانه .

المبحث الرابع

الإهلاك بطوفان السيل (سيل قوم سبأ)

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة سبأ ١٥- ١٦].

سبأ اسم قوم كانوا يسكنون اليمن ، كانوا يسكنون في أرض مخصبة ، وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى أقاموا سداً عظيماً به عيون تفتح وتغلق يوزعون عن طريقها الماء على بساتينهم ، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد ، وتحكموا فيها وفق حاجاتهم ، فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم .

وكانت الجنان تحيط بهم عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ،وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله ، وأن يشكروه على نعمة البلدة الطيبة وهذا النعيم والعيش الرغيد وعلى مغفرته لهم على تقصيرهم وذلك إذا شكروا الله : ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾.

ولكنهم مع هذا كله أعرضوا عن شكر الله وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم ، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه ، فأرسل الله عليهم السيل الجارف الشديد ، فحطم السد ، وساعد على تحطيم السد فأرٌ جعل يخرب في السد إلى أن جاء السيل فلم يستطع السد منعه فانساحت المياه وغطت وأغرقت الجنتين ، فذهب ماؤهم وهلكت جناتهم ، وأصبحت البلدة الطيبة بعد كفرهم بالله بلدة غير آمنة من السيول وغير صالحة للعيش ، لأن الله بدلهم بالجنتين جنتين : ﴿ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ، " تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل "[1]

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٦).

ثم يعقب الله على قصة قوم سبأ بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ أي : أن هذا التبديل وهذا السيل بسبب أنهم بدلوا نعمة الله كفراً [1] ، فعندما أعرضوا وكفروا بدل الله حالهم إلى أسوأ حال ، وكذا جزاء كل كافر معرض عن الله تعالى قال تعالى : ﴿ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾.

(١) انظر قصة قوم سبأ في كتب التفسير عند تفسير آيات القصة المذكورة في سورة سبأ ، والبداية والنهاية (٢/١٤٧).

المبحث الخامس

الإنذار بالطوفان (طوفان قوم فرعون)

قال تعالى عن قوم فرعون :﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف ١٣٢-١٣٣].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "لما جاء موسى بالآيات كان أول الآيات الطوفان ، فأرسل الله عليهم السماء"(١) .

وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك : "أن الطوفان في هذه الآية المطر الشديد أصابهم وتوالى عليهم حتى هدم بيوتهم وضيق عليهم "(٢).

وهذا الطوفان قد أصاب قوم فرعون عذابا لهم من الله لأنهم ساموا بني إسرائيل أشد العذاب و لم يؤمنوا بالله تعالى وتجبروا وطغوا في الأرض ، فأرسل الله عليهم أنواعاً من العذاب لعلهم يتوبون ويرجعون ومن ذلك العذاب الطوفان .

يقول السدي : "و لم يصب بني إسرائيل قطرة من ماء بل دخل بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ودام عليهم سبعة أيام وقيل أربعين يوماً ، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا فنؤمن بك ، فكشف الله عنهم الطوفان ، ولكنهم لم يؤمنوا ، فأنزل الله عليهم نوعاً آخر من العذاب"(٣) .

فهذه هي عاقبة الإعراض عن الله وعن دين الله ، وأذية المؤمنين والذين يأمرون بالقسط من الناس ، هذا هو عقابهم من الله تعالى ، وعقاب كل من نهج مسلكهم وعمل بعملهم.

---

(١) تفسير الطبري (١٠/٣٧٩).

(٢) المحرر الوجيز (٦/ ٤٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/٢٦٨).

الفصل الثاني

التهديد بالإغراق

المبحث الأول

صور التهديد بالإغراق عامة

قد هدد الله تعالى وتوعد بالإغراق لكل من لم يلتزم أمره كما فعل مع فرعون وقومه وأغرقهم في البحر وكما أغرق أيضا قوم نوح بالطوفان فقال تعالى :﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة الإسراء ٦٦- ٦٩]. ، وقال تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة يس ٤١-٤٣].. وفيها من الوعيد الشديد ما يرعب كل ذي لب حازم حكيم فقد توعد مالك الملك الذي لا يعجزه شيء أن يحول ما هو نعمة منه تيسيراً على خلقه إلى أداة إهلاك وعذاب لا ينجيهم منه أحد البتة مهما كان حوله وطوله ، وظنه بنفسه ، وغروره بما أوتي من حول أو قوة .

نسأل اله العفو والعافية ، فلولا رحمة الله وإنظاره لعباده لعلهم يتوبوا ويرجعوا لوقع بهم العذاب الغليظ المباشر قال تعالى﴿ إِلَّا رَحۡمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة يس ٤٤]

المبحث الثاني

وصف حال الناس في موج البحر

وصف الله حال الناس وهم في البحر عامة ، والمشركين به خاصة فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة يونس ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة لقمان ٣٢]..

والله هنا يذكر عن الناس عامة والمشركين خاصة أنهم عندما يكونون في الشدة ، وهم في البحر والأمواج عالية ، فهم يخافون من تلك الأمواج أن تغرقهم ، فليس لهم من ينجيهم من هذه الأمواج إلا من خلق البحر وخلق الرياح التي تأتي بالأمواج وخلقهم وجاء بهم بين هذه الأمواج ، فهم يدعون الله تعالى مخلصين له الدين علما منهم أنه هو الذي سينجيهم منها .

ولكن بعد أن ينجيهم الله تعالى ينقسمون إلى فريقين : فريق معترف له بالمنة والفضل مخلص له العبادة يظل شاكرا داعيا الله. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الزخرف ١٢-١٤].

والفريق الآخر يجحد بآيات الله وبنعمه ، فهو صنف غدارٌ كفورٌ بنعمة الله تعالى ، فهم آمنوا بالله وحده وقت الشدة والحاجة ، وكفروا به في وقت الرخاء إتباعا للشيطان والهوى وشهوة

النفس ، قال تعالى عن المشركين به في ذلك الموقف خاصة : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة العنكبوت ٦٥].

وقد بين الله لعباده الطريق السوي والمهلكات والصوارف عن ذلك الطريق وحذّر عباده فقال تعالى :﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة يس ٦٠-٦٢]. .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [سورة الجاثية ٢٢].

فمع علمهم أن الله هو المستحق للعبادة وأن أصنامهم وأندادهم من دون الله لا تنفعهم شيئاً ، إلا أنهم أبوا إلا موافقة أهوائهم وترك ما دلتهم عليه الحقائق والشواهد المتلوة والمشاهدة ، فياسبحان الله !.

وكما مرّ بنا في الحديث عن قوم نوح أن الموج كان كالجبال ، قال تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [سورة هود ٤٢] من عظم الموج كان كأنه جبل ينقض على كل شيء فيهدمه ويبتلعه ، لأنه أصبح كالظلل: السحب المحيطة بالإنسان ولا يدري مفراً ولا مخرجاً منها.

المبحث الثالث

وصف موج البحر وظلمته وضربه مثلاً

شبّه الله تعالى لعباده شدة ظلمة الكفر بظلمة البحر كثير الأمواج ، ولأنهم يعرفونها جيداً ويتصورونها جعلها الله مثلاً لظلمة الكفر إنذاراً لهم وتحذيراً من الوقوع فيه، وبياناً لأهمية التأمل والتفكر في آيات الله الكونية المحيطة بالإنسان في كل آنٍ ، قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة النور ٤٠].

"يبين الله سبحانه وتعالى شدة الظلمة التي يقع فيها الكفار حين انحرفوا عن نور الله تعالى ، والوصف هنا وصف عظيم لشدة الظلمة فقد ذكر الله سبحانه أنها :﴿ ظُلُمَٰتٌۢ ﴾ متعددة ، وجمع المؤنث السالم يدل على الكثرة ، وأن هذه الظلمات ﴿ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ أي: في بحر عميق كثير الماء"[1]، " ثم هذا البحر العميق ليس ساكنا في هذه الظلمة ولكنه : ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ﴾ أي: أن الموج مع كثرته وشدته كأنه فوق بعض من علوه ، و لم تقف الظلمة والشدة عند هذا الحد، ففي هذه الحال يأتي السحاب يحجب النجوم والقمر ويكون فوق ذلك الموج: ﴿ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ﴾ وهذه غاية في شدة تراكم الموج فوق بعض حتى أنه كاد يصل إلى السحاب"[2].

ثم يصف الحالة التي يكون عليها من يكون في تلك الظلمة للتأكيد على شدة الظلمة أيضا : ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ فلا يري من في داخل تلك الظلمة أقرب الأشياء إليه ، يده التي هي جزء منه لا يكاد يراها. وكذلك الكفار تراكمت على قلوبهم الظلمات ، قال أبي بن كعب رضي الله عنه:"الكافر يتقلب في خمس من الظلمات: كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار وبئس المصير"[3].

---

(١) روح المعاني (١٨٢/١٨).

(٢) روح المعاني (١٨٣/١٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٢٩٨/١٧) ، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٧١/٦) ، والسيوطي في الدر المنثور (٦٣/١١) ، وابن أبي حاتم (٢٥٩٣/٨) ، والحاكم في المستدرك (٤٣٤/٢) وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٨٥) .

ثم يعقب الله تعالى على هذه الصورة الشديدة وهذا المثل الشديد الظلمة بقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي من لم يهده الله تعالى فلا هادي له ، كما قرر ذلك في آيات كثيرة ، ومنها﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الكهف ١٧].

"إنه مثال رائع لحياة وأعمال أولئك الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولي ة أمام الله تعالى ، فهم يعيشون في حيرة وقلق واضطراب ، وظلمة تغلف عقولهم ونفوسهم ، تتقاذفهم أمواج شهواتهم المضطرمة في نفوسهم ،وإن هذا المثال ليبين شدة افتقار الإنسان إلى هداية الله تعالى وأحكام شريعته"(١).

فليتصور الإنسان نفسه وهو واقع بين تلك الأمواج وتلك الظلمة الشديدة ، ماذا سيكون حاله إن لم يكن له من ينجيه من هذه الأمواج وهذه الظلمات . إن المؤمن يعلم أن هذه الأمواج وهذه الظلمة بيده سبحانه يتصرف فيها ، فيهرع إلى الله بالدعاء أن ينجيه منها ، وأمر الله نافذ لا محالة قال تعالى :﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة الزمر ٦١].

والصورة الممثل بها هنا – من ظلمات البحر وشدة تراكم الأمواج – صورة حقيقية تدل على وصف ثابت لتلك الأمواج وأثرها في غياهب البحار والمحيطات ، وتدل أيضا على تعدد الموج وانفصال بعضه عن بعض في طبقات منفصلة وإن لم تكن كذلك في رأي العين المجردة.

فتلك الأمواج آية من آيات الله العظيمة يخوف الله بها عباده ، ويحذرهم بها من الوقوع في مخالفة دينه وشرعة ، ولو شاء لسلطها على من شاء من خلقه فدمرهم تدميرا مع أنها من الماء السهل اللين .اللهم لا حول لنا ولا قوة إلى بك ورحمتك أوسع من أعمالنا.

(١) من موضوعات القرآن (سورة النور / ٧٤).

الفصل الثالث

أسباب الطوفان الشرعية وعواقبها

إن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يدلان على أن هذه ا لكوارث وغيرها من التغيرات الكونية إنما تصيب العباد بسبب ذنوبهم وكونها تقع لأسباب معروفة لا يخرجها عن كونها مقدرة من الله سبحانه على العباد لذنوبهم فالله خالق السبب والمسببات.

فمن أسباب الطوفان الشرعية :

١- الفسق عن طاعة الله :

قال الله تعالى :﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء ١٦].

وعن عمران بن حصين أَنَّ رسول اللّه صلى اللَه عليه وسلّم قال: (فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ) فقال رجلٌ من المسلمين: يا رسول اللَّه ومتى ذاك؟ قال: (إِذَا ظَهَرَتْ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ وَشُرِبَتْ الْخُمُورُ)[(١)]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يكون في آخر الزمان خسف ومسخ وقذف، قالت قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا ظهر الخبث)[(٢)].

وعن عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ، و لم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم ، و لم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، و لم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)[(٣)].

٢- الظلم :

---

(١) سنن الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في علامات حلول المخ والخسف (٢٢١٢).سنن ابن ماجة كتاب الفتن باب الخسوف (٤٠٦٠). سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٢٩٣ح١٧٨٧).

(٢)سنن الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في الخسف (٢١٨٥). سلسلة الأحاديث الصحيحة (٩٨٧).

(٣) سنن ابن ماجة كتاب الفتن باب العقوبات (٤٠١٩). وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٦)، وصحيح سنن أبي داود(٣٢٤٦).

قال تعالى في نهاية هلاك قوم نوح :﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ﴾ [سورة هود ٤٤]. وقال تعالى:﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥ ﴾ [سورة نوح ٢٥]. وقال تعالى:﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧ ﴾ [سورة الفرقان ٣٧].

وقال تعالى عن الأمم الماضية :﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ ﴾ [سورة النحل ٢٦]. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ ﴾ [سورة هود ١٠٢].

فمما يؤكد هذا المعنى كما رأينا النظر في خواتيم الآيات التي ختم الله بها كل قصة من قصص الأمم الهالكة ، ففي خواتيمها التهديد والوعيد ، والتخويف لكل من عَمِل عَمَل تلك الأقوام ، ورأسها الظلم والتكذيب والمكر.

٣- الكفر بالله تعالى وآياته :

قال تعالى في هلاك قوم فرعون:﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ ﴾[سورة الشعراء ٦٦- ٦٨]. وقال تعالى في هلاك قوم سبأ :﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ ﴾ [سورة سبأ ١٧].

٤- الغفلة والإعراض عن آيات الله وشرعه :

قال تعالى:﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ ﴾ [سورة الأعراف ١٣٦].

٥- المعصية والإسراف فيها :

قال تعالى لفرعون عند إهلاكه:﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا

لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة يونس ٩٢] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة يونس ٨٣].

٦- منع حق الله أو حقوق الخلق :

قال تعالى عن أصحاب الجنة عندما منعوا الزكاة وقالوا: ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ قال عنهم:﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ثم عقب بقوله:﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ "أي هذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم عليه ومنع حق المساكين والفقراء ، وذوي الحاجات وبدل نعمة الله كفراً ، ولن يقف العذاب عند عذاب الدنيا فقط بل هناك عذاب في الآخرة أشد وأشق "[1].

والخلاصة في ذلك :

أن الإنسان ممتحن من ربه ليتميز الصادق في إيمانه وعبوديته من الكاذب كما قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة العنكبوت ٢-٣].

فالله يحذر عباده ويخوفهم بأسه وشدته ، لأنه يغار إذا انتهكت محارمه ، وأعظم محارمه وأكبرها الشرك والعياذ بالله ، ثم كل ما يؤدي إليه من المعاصي والذنوب ، أو ينقص كمال التوحيد والعبودية لله عز وجل ، ويضعف الإيمان به ، ولذا حذر عباده فقال تعالى:

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة الإسراء ٦٨-٦٩].

وعلى هذا فإن كل ما يحدث في الوجود من الفيضانات والطوفان والزلازل وغيرها مما يضر العباد ويسبب لهم أنواعا من الأذى ، كل ذلك بأسباب: **الشرك والظلم والتكذيب والمعاصي**،كما قال الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[سورة الشورى٣٠]. وقال تعالى:﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ

(١) تفسير ابن كثير (٨/١٩٥-١٩٧) باختصار.

وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾[سورة النساء ٧٩]، وقال تعالى:﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الروم ٤١].

لقد عمّ قوم نوح الغرقُ، وأَهْلكت عاداً الريحُ العقيمُ، وأخذت ثمود ا الصيحةُ، وقُلبت على اللوطية ديارهم، فجعل الله عاليها سافلها، وأمطر عليها حجارة من سجيل، يقول الله تعالى بعد ذكرهم :﴿ فَكُلاًّ أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة العنكبوت ٤٠]

تلكم الذنوب، وتلكم عواقبها وما هي من الظالمين ببعيد. ما ظهرت المعاصي في ديار إلا أهلكتها، ولا فشت في أمة إلا أذلتها، ولا تخلخلت في دولة إلا أسقطتها. إنه ليس بين أحد وبين الله نسب.

وقد هدد الله تعالى وتوعد بالإغراق لكل من لم يلتزم أمره كما فعل مع فرعون وقومه وأغرقهم في البحر وكما أغرق أيضا قوم نوح بالطوفان فقال تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة يس ٤١-٤٣] وفيها من الوعيد الشديد ما يرعب كل ذي لب حازم حكيم فقد توعد مالك الملك الذي لا يعجزه شيء أن يحول ما هو نعمة منه تيسيراً على خلقه إلى أداة إهلاك وعذاب لا ينجيهم منه أحد البتة مهما كان حوله وطوله ، وظنه بنفسه ، وغروره بما أوتي من حول أو قوة .

نسأل اله العفو والعافية ، فلولا رحمة الله وانظاره لعباده لعلهم يتوبوا ويرجعوا لوقع بهم العذاب الغليظ المباشر قال تعالى﴿ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة يس ٤٤]

الخـــــاتمـــــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

بعد هذا العرض لبعض قصص القرآن في إهلاك الأقوام السابقة بالطوفان يمكننا أن نقول أنه قد تبين لنا من خلال ذلك العرض ما يلي :

١ -أن العزة والقوة والجبروت لله وحده دون سواه ، ما كان للعباد من قهر وعزة فإنما هي أثر من آثار عزة الله وحده ، فإن فهموا ذلك واعتبروا نجوا ،وإن اغتروا به وزعموه لأنفسهم هلكوا لا محالة ، فإن فرعون اغتر بقوله : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[سورة الزخرف ٥١] فأهلكه الله بالماء ، وقوم سبأ تنعموا بالماء وبه سادوا وعزوا فلما كفروا وطغوا أهلكوا به .

٢ -ضعف الإنسان وجهله بربه سبحانه ولذا يطغى عندما يستغني قال تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾[سورة العلق ٦-٧]، ولكن علاجه من ذلك الداء﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾[سورة العلق ٦-٧-٨] فمن يؤمن بالآخرة حق الإيمان لا يمكن أن يطغى بل يحاول استثمار ما يطغي الكافر والجاحد في رضى ربه.

٣ -إعجاز القرآن في أسلوبه وتنويع الله لخطاب عباده وتحذيره لهم من عقابه ، فمرة يذكر لهم وصف الطوفان الذي حصل لقوم نوح ، ومرة أخرى يذكر لهم وصفهم عندما تموج بهم البحار والمحيطان ، ومرة أخرى يذكر لهم نتيجة ذلك الطوفان الذي حل بالأمم من حولهم مما يشاهدون آثاره ويعرفون أخباره ، ومرة يذكر لهم في معرض التهديد والتخويف والاعتبار ما أهلك به الأمم قبلهم.

٤ -أقام الله الحجة على عباده بأن ذكر لهم أنواعاً متعددة من الطوفان : فمن طوفان الماء وهو الأغلب ذكر طوفان قوم نوح ، ومن الغرق ذكر غرق فرعون وقومه ، وهو طوفان طاف بهم بلا شك ولكن هم الذين سعوا إليه بإقدامهم عليه ، ومن كفران النعم طوفان سيل العرم لقوم سبأ، ومن التحايل على أمر الله وشرعه طوفان

أهل الجنة ، وفي معرض تقريب الصورة للأذهان خاطبهم بما يحصل لهم في البحر حال هيجان البحر واضطراب أمواجه -نسأل الله العفو والعافية- فلم يترك ربنا سبحانه لمشتبه حجة .

٥ -أن الطوفان يعني كل ما طاف بالشيء وأحاط به من جميع جوانبه ، وإن كان المفهوم المتبادر إلى الذهن والاستعمال عادة طوفان الماء لأنه الأسهل في التصور الذهني ، وأن عذاب الله إذا حل بقوم فلا محيد عنه ولا مفر فإنه يطوف بهم من جميع الجهات والجوانب ،نسأل الله العفو والعافية.

٦ -أن ذلك المعنى للطواف يدل على كمال نعيم أهل الجنة حيث أن خدمتهم شاملة وكاملة لكل الجوانب لا كدر فيها ولا نقص .

٧ -أن الشيطان أشد ما يكون على إضلال بني آدم وصدهم عن الله ودينه ، فلا يزال يطوف بهم ليجد الثغرة التي يضلهم من جهتها ، ولذا فإن العبد أشد ما يكون حاجة وفقراً إلى ربه مهما بلغ من العبادة والطاعة فلا يأمن مكر الشيطان ووسوسته حتى يتوفاه الله على صراطه المستقيم ، نسأل الله الثبات .

٨ -بلاغة القرآن وكماله في معانية حيث يدلنا ربنا بالألفاظ القليلة على المعاني الواسعة الشاملة لصلاح الدنيا والدين ، والمستوعبة لحاجة الناس ؛ بالأمس واليوم وغداً وحتى قيام الساعة ، على مختلف أجناسهم وحضاراتهم ، لذا علينا أن نمعن النظر ونتأمل في آيات الله بحسب ما يشرحها من آية وسنة وأقوال لسلف هذه الأمة ؛ كلما طرقتنا الغرائب والمسائل . والله المستعان وعليه التكلان .

٩ -في المواضع التي أشار الله فيها إلى ما جرى لأولئك الأقوام من العذاب ، لا نجد في النصوص ما يشير إلى التهكم أو التندر بالعذاب أو تعييرهم بذلك والتشميت بهم ، بل كلها اتفقت على الجانب الإيجابي بذكر أسباب العذاب ، وقربه ممن خالف أمر الله ، وإنذار الخلق اللاحقين عن أن يصيبهم ما أصابهم ، قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [سورة الأنفال ٢٥].

هذا وإن الجهد البشري لا يخلوا من عيب ونقص ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

وإن عجائب هذا الكتاب لا تنقطع ، ولا يمل منها معتبر ومتأمل ولا سيما إذا قارن ذلك إلمامه بأسباب أخرى كمعرفة الأسباب والآثار والنظائر المتعلقة بالنص أو بالنصوص المتعلقة بمعناه .

وأوصي نفسي وإخواني بأن لا يملوا قراءة كتاب الله والتمعن فيه وان لا نهجره ، أو نعرض عنه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على بينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الباحث/د.محمد بن عبدالعزيز العواجي

تم تبييضه في ١٤٢٧/٧/١٧هـ

طيبة الطيبة

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

- البداية والنهاية – ابن كثير – مكتبة المعارف – دار الكتب العلمية – بيروت – ط٣- ١٤٠٧هـ.

- الجامع لأحكام القرآن – محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – دار الكتاب العربي .

- القاموس المحيط –الفيروزآبادي- مؤسسة الرسالة – ط٢-١٠٧.

- المحرر الوجيز في الكتاب العزيز – عبد الحق بن عطية الأندلسي- مؤسسة دار العلوم- الدوحة – ط١(١٣٩٨هـ- ١٩٧٧م).

- المستدرك على الصحيحين - محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري - مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية – بيروت – ط١(١٤١١هـ - ١٩٩٠م).

- المعجم الأوسط - أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني - دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥هـ.

- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي - دار إحياء التراث العربي – بيروت- ط٢ (١٣٩٢هـ).

- النكت والعيوت تفسير الماوردي – على بن محمد بن حبيب الماوردي – تحقيق : السيد بن عبد المقصود- دار الكتب العلمية – بيروت – ط١(١٤١٢هـ-١٩٩٢م).

- تفسير القرآن العظيم – إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي – تحقيق سامي بن محمد السلامة – دار طيبة للنشر والتوزيع – ط١ (١٤١٨هـ-١٩٩٧م).

- تفسير القرآن العظيم – عبد الرحمن بن محمد الرازي ابن أبي حاتم – تحقيق : أسعد محمد الطيب- مكتبة الباز – مكة المكرمة – ط١(١٤١٧هـ-١٩٩٧م).

- تفسير غريب القرآن – عبد الله بن مسلم بن قتيبة – تحقيق : السيد أحمد صقر – دار الكتب العلمية - بيروت- ط(١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م).

- تفسير غريب القرآن العظيم – محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي – تحقيق : د/ حسين أمالي – مديرية النشر والطباعة والتجارة – أنقرة – ط(١٩٩٧م).
- تيسير الكريم الرحمن للإمام عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله ط.مؤسسة الرسالة عناية د.عبدالرحمن اللويحق ١٤٢٠هـ .
- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للإمام عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله ط.وزارة الشؤون الإسلامية بالرياض . الأولى ١٤٢٢هـ.
- جامع البيان عن تفسير آي القرآن – محمد بن جرير الطبري – تحقيق د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي – مركز البحوث والدراسات الإسلامية – القاهرة –ط١(١٤٢٢هـ-٢٠٠١مـ).
- جامع الترمذي – محمد بن عيسى الترمذي - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع – الرياض ١٤١٩هـ-١٩٩٨مـ- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية .
- حاشية السندي على النسائي - نور الدين بن عبدالهادي أبو الحسن السندي - تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة- مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب - ط٢ (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – محمود الألوسي البغدادي – دار الفكر – بيروت – (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣مـ).
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها – محمد ناصر الدين الألباني- مكتبة المعارف – الرياض- ط(٢٠٠١م).
- سنن ابن ماجه – محمد بن يزيد بن ماجه القزويني - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع – الرياض ١٤١٩هـ-١٩٩٨مـ- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية .
- سنن أبي داود – سليمان بن الأشعث السجستاني - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع – الرياض – ١٤١٩هـ-١٩٩٨مـ- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية .
- صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل البخاري - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع – الرياض – (١٤١٩هـ-١٩٨٩مـ)- اعتناء أبو صهيب الكرمي .

- صحيح سنن أبي داود – محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش – المكتب الإسلامي – بيروت – ط الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

-صحيح مسلم – مسلم بن الحجاج النيسابوري - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع – الرياض – (١٤١٩هـ-١٩٨٩م)- اعتناء أبو صهيب الكرمي .

- معاني القرآن – يحيى بن زياد الفراء – تحقيق : أحمد يوسف نجاتي .

- معاني القرآن الكريم – النحاس - جامعة أم القرى - مكة المرمة - الطبعة الأولى ، ١٤٠٩- تحقيق : محمد علي الصابوني.

- معاني القرآن وإعرابه – الزجاج – عالم الكتب – بيروت – ط١-١٤٠٨هـ.

- معجم مفردات ألفاظ القرآن- الراغب الأصفهاني – دار الفكر- بيروت.

- من موضوعات سور القرآن -عبد الحميد محمود طهماز – دار القلم دمشق – الدار الشامية بيروت -ط١(١٤١٢هـ-١٩٩٢م).

- نزهة الأعين والنواظر في علم الوجوه والنظائر-ابن الجوزي – الرسالة – بيروت- ط٢-١٤٠٥هـ.

فهرس الموضوعات

م

المقـــــــــدمة	٤
سبب اختيار الموضوع :	٥
خطة البحث :	٦
منهجية البحث :	٦
تمهيد بذكر معاني الطوفان وذكرها في القرآن	٨
الطوفان لغة :	٨
الطوفان اصطلاحاً:	٨
معاني الطوفان في القرآن :	٩
الفصل الأول :صور الإهلاك بالطوفان في القرآن الكريم	١٠
المبحث الأول : الإهلاك بطوفان الماء (طوفان قوم نوح)	١٠
المبحث الثاني :الاهلاك بطوفان النار (طوفان أصحاب الجنة)	١٤
المبحث الثالث :الإهلاك بطوفان الغرق (غرق قوم فرعون)	١٦
المبحث الرابع : الإهلاك بطوفان السيل (سيل قوم سبأ)	١٨
المبحث الخامس :الإنذار بالطوفان (طوفان قوم فرعون)	٢٠
الفصل الثاني :التهديد بالإغراق	٢١
المبحث الأول :صور التهديد بالإغراق عامة	٢١
المبحث الثاني :وصف حال الناس في موج البحر	٢٢
المبحث الثالث :وصف موج البحر وظلمته وضربه مثلاً	٢٤
الفصل الثالث :أسباب الطوفان الشرعية وعواقبها	٢٦
الخـــــاتمـــــة	٣٠
قائمة المصادر والمراجع	٣٣